مقدمة

حملت مصر منذ فجر التاريخ مشعل الحضارة والمدنية فى قارتنا الافريقية التى اصر الغرب الاستعمارى على اتهامها بالهمجية . حملت مصر هذا المشعل قبل أن تظهر مشاعل أخرى فى مشارق الأرض أو فى مغاربها . وسنقتصر فى هذا البحث على شرح الدور الذى قامت به مصر فى افريقية فى العصور الحديثة والمعاصرة .

ولقد خضع التاريخ الافريقى لعوامل متعددة اثرت على كتابته . واثرت على تفسير مضمونه ، وأعطته لونا خاصا ، وحتى وقت قريب . ذلك أن الحروب الاستعمارية ، التى قامت بها الدول الأوربية لتقسيم هذه القارة وإحتلالها طمست كثيرا من أوجه تاريخ هذه البلاد . فبعد الحروب التى انهت اجيالا من الزعماء والوطنيين ، وداست على ذكرياتهم ومذكراتهم ، وما حفظوه وماشاهدوه ، حاول الاستعماريون كتابة تاريخ هذه القارة ، ومن وجهة نظرهم ، ولخدمة مصالحهم ، سواء أكان ذلك للتفريق بين العناصر الوطنية أو لربط جزء معين ، أو اقليم بعينه من هذه الاقاليم ، بعجلة هذه الامبراطوية ، أو بتلك . وكم من دار للمحفوظات التاريخية انتهكت حرمتها ، ولعبت فيها أيدى الطامعين المغرضين ، حتى وأن كانت منظمة وغنية ، كدار المحفوظات التاريخية بالقاهرة .

وبعد هذا نلاحظ أن الدول الاستعمارية ، قد نجحت – بعد احتلالها لعدد من الدول الافريقية – فى تنشئة جيل من الموظفين ، بل حتى من الباحثين والدارسين ، يقرأون لغتها ، ويتعلمون فى كتبها وعلى اساتذتها ، ماترغب هذه الدول الاستعمارية فى اعطائه كتفسير لتاريخ القارة الافريقية .

وساعدت هذه العوامل مع غيرها على حجب الحقيقة واخفائها ، دون أن يقوى عالم أو باحث على رفع صوته مناديا بالحقيقة ، شارحا سير وتطور التاريخ الحقيقى للقارة الافريقية .

ولكن هذا الاتجاه كتب عليه التراجع مع طغيان تلك الروح التحررية . والرجوع للاتجاه الحق . ولا يمكن تصور عودة الحق إلى نصابه إلا اليقظة ، ويقظة العلماء الذين سمحت لهم الظروف بحرية التحدث ، مستندين فى ذلك إلى الوثائق ، وإلى شعورهم بأصالتهم وأصالة الشعوب التى أخرجتهم ، والتى كافحت وسقطت صريعة فى وجه الاستعمار .

ولقد كانت وسائل النشر الاوربية ، وقوة التوزيع ، تسمح للاوربيين بما لا تسمح به للكاتب الشرقى الوطنى ، ولكن هذه الظروف تغيرت وأصبح القارىء والباحث والدارس الشرقى يمعن النظر طويلا فى قراءته لأى كتاب أجنبى ، قبل أن يقرر أخذ مافيه ، أو نقد ما فيه ، والحكم على من كتبه .

وعلى كل حال فان الدور الذى قامت به مصر فى إفريقية كدولة افريقية ، حملت مشعل الحضارة والمدنية - لايمكن لأى كاتب أن ينساه أو يتناساه ، حتى وإن كان من أشد المغرضين .

ورغم قلة المصادر العربية عن مثل هذا الموضوع ، وعدم ترتيبها وصعوبة الحياد فيها ، بعد هذه التطورات الثقافية والحضارية العميقة التى أصابت افريقية ، ورغم ارتباط مثل هذا الموضوع بالمصالح المادية ، وبالنعرات والنزعات الاستقلالية ، ورغم صعوبة الحياد فى موضوع قل أن توجد فيه أسرة فى أى من أقاليم شمال افريقية الشرقية لم تشارك فى أحداثة باحد ابنائها رغم كل ذلك ، علينا أن نروى هذا التاريخ كصفحة خالدة ، كتب عليها أن تطمس باطماع الدول الاستعمارية وتكالبها على القارة الافريقية ، فى القرن التاسع عشر .

ولقد قسمت الكتاب الى جزئين يضمان سبعة أقسام : ويشتمل الجزء الاول على القسم الاول والثانى والثالث ؛ وحتى مرحلة إخلاء السودان . أما الجزء الثانى فيضم القسم الرابع والخامس والسادس والسابع ، وحتى إستعادة

ولقد شرحت فى القسم الأول دور مصر ، كدولة افريقية ، فى قارتها الافريقية . واشتمل ذلك القسم على دور مصر فى وادى النيل منذ النصف الأول من القرن التاسع عشر ، ومد الدولة المصرية حدودها إلى أقاليم السودان ، ومدها لحدودها إلى شرق افريقية مع سواحل البحر الأحمر جنوبا وتلقائيا حتى خليج عدن ، خليج الصومال المصرى ، وماقامت به من مشروعات انشائية ومحققات واضحة .

أما القسم الثانى فيشرح أسباب ووسائل التدخل البريطانى فى هذه الدولة الافريقية ، وعمله على هدم كيانها تمهيدا للسيطرة عليها ، واخضاعه لها سياسيا ، واستغلاله لها اقتصاديا ، ووضعها فى خدمة الامبراطورية ، التى كانت لاتغرب عنها الشمس ، وقد غربت ، ويستمر فى شرح التدخل البريطانى ومحاولة إيطاليا وضع أقدامها على أجزاء من سواحل البحر الأحمر ، وموقف مصر من ذلك . وينتهى هذا القسم بشرح رد الفعل الوطنى القومى فى كل من شمال الوادى وجنوبه لهذا التدخل الاستعمارى ، وقيام الثورة العرابية فى مصر ، والثورة المهدية فى السودان ، أمام مثل هذا التدخل ، ولكن فى الوقت الذى انتظمت فيه قوات الاستعمار بوسائلها وأسلحتها لانتهاك حرمة البلاد ، واحتلالها واستغلالها .

أما القسم الثالث فقد تناولت فيه عملية التدخل البريطانى لاخلاء سودان وادى النيل ، وتطور السياسة البريطانية فيه من أدعاء بعدم التدخل إلى الاستناد الوهمى الى امكانيات مصر المالية والعسكرية ، وأعطاء النصيحة الاجبارية بسحب القوات والموظفين والأهالى المصريين من السودان شمالا ، والاحتفاظ بهذه الاقاليم كمنطقة توسع مقبلة للامبراطورية البريطانية . ولقد لعبت بريطانيا دورا هاما فى اجبار مصر على اخلاء السودان ، واستخدمت فى ذلك العنف السياسى ، أن لم يكن عنفا عسكريا . وبعد هزيمة حملة الجنرال هيكس أرسلت

الكولونيل غردون لاخلاء السودان ورغم تردد الحكومة البريطانية ، أو ظهورها بمظهر التردد ، فانها قد حاولت الافادة من وجود غردون فى السودان لكى تعمل على انشاء حكومة مستقلة فى هذا الاقليم ، خاضعة لنفوذها ومرتبطة بها أكثر من ارتباطها بمصر . ومع محاولتها انقاذ غردون استمرت هذه السياسة البريطانية وضوحا فى مسألة الاحتفاظ بأحد أقاليم السودان ، حتى ولو كان هذا الاقليم هو مجرد مديرية دنقلة ، وربطه بوزارة المستعمرات أو وزارة الخارجية فى لندن . ولكن الثورة السودانية كانت أقوى من أن تسمح لبريطانيا بالبقاء فى السودان ، رغم تمكنها من البقاء فى مصر وسيطرتها عليها . واضطرت بريطانيا إلى اخلاء كل السودان ، ولم تحتفظ إلا بقاعدتين أماميتين ، هما وادى حلفا وسواكن ، وبشكل يسمح لها باعادة غزو السودان ، والسيطرة عليه . ولقد اخلى السودان واصبح مهديا فى الوقت الذى رزحت فيه مصر تحت تحكم الاستعمار البريطانى . وهذا هو الجزء الأول من الكتاب .

أما الجزء الثانى فيضم القسم الرابع والخامس والسادس والسابع . ويعالج القسم الرابع موضوع السواحل الشرقية للسودان ، والممتدة جنوبا من حدود مصر الشرقية وسواحلها إلى مصوع وبوغاز باب المندب . ولقد كتب لهذا القسم من اقسام الدولة المصرية الافريقية أن يشهد مناورات بين السياسة الايطالية ، والسياسة الحبشية ، والسياسة البريطانية ، مما اعطاه شكلا خاصا به ، يسمح لنا بمعالجته فى ضوء ظروف وعوامل تختلف عن ظروف وعوامل الموقف فى سودان وادى النيل . وبعد أن قامت بريطانيا بعقد معاهدة مع الحبشة ، ادعت فيها احتياجها لهذه الدولة الافريقية لانقاذ الحاميات المصرية فى شرق السودان ، وكانت تهدف بها اقامة توازن فعلى بين الحبشة المسيحية والثورة المهدية فى السودان - تساهلت بريطانيا مع ايطاليا فى أمر توسعها فى سواحل السودان من مركز عصب الى حكمدارية مصوع ، واستيلائها عليها ورفع العلم الايطالى عليها . وقد اشتمل هذا القسم على شرح موجز للعلاقات البريطانية الحبشية ، والعلاقات البريطانية الايطالية التى سمحت بالوصول الى هذه المرحلة من مراحل الاستيلاء على أحد الاقاليم المصرية الافريقية ، والتى

أدت بالتالى الى وقوع تصادم بين المصالح الحبشية والايطالية ، وعلى الاسلاب المصريه الافريقية فى هذه الاقليم بعد ذلك .

أما القسم الخامس فقد شرحت فيه تقسيم بلاد الصومال بين بريطانيا وفرنسا ، وتنافس كل منهما مع الأخرى للوصول إلى أقليم الهضاب فى الداخل ، اقليم هرر الاسلامى الغنى بموارده ومنتجاته ، ثم نزول ملك شوا إلى هذا الاقليم ، وانهائه على مابقى فيه من مظاهر لحضارة ومدنية بقيت بعد انسحاب المصريين .

وأما القسم السادس فيشتمل على تاريخ مديرية خط الاستواء ، تلك المديرية التى كانت فى موقع دولة أوغندة الحالية ، والتى دفع المصريون والسودانيون من أرواحهم ودمائهم ثمنا غاليا لتوحيدها مع الدولة المصرية الافريقية الموحدة ، والتى عاشوا فيها ، وتزوجوا منها ، وصبغوها بصبغتهم العربية والاسلامية التى لاتزال بقاياها حتى الآن ، ورغم أنف المستعمرين . ولقد شرحت فى هذا القسم وسائل تدخل البريطانيين ، ومحاولة اخلائهم للمصريين من هذه المنطقة ، تمهيدا لضمها الى مناطق نفوذهم فى شرق افريقية ، وخاصة مع مستعمراتهم فى كينيا ، التى كانوا قد بدأوا فى التوغل فيها من زنجبارصوب جبل كينيا ، والمرتفعات الخصيبة ، وجنة هضبة البحيرات اليانعة .

وأما القسم السابع فقد تحدثت فيه عن تثبيت أقدام بريطانيا فى مصر ومحاولتها الوصول إلى نفس مستوى النفوذ العثمانى فى هذه البلاد ، وذلك بمفاوضاتهم مع الدولة العثمانية واتفاقية السير هنرى دراموند وولف سنة ١٨٨٥ ، وبالاتفاقية الثانية سنة ١٨٨٧ ، وتسوية مشكلة قناة السويس ، وخاصة مع فرنسا والدول المنتفعة بالقناة باتفاقية سنة ١٨٨٨ . ولقد سمح ذلك لبريطانيا بالسيطرة على موارد مصر الاقتصادية ، وأمكانياتها الاستراتيجية ، واخضاع الاقتصاد المصرى لاحتياجات الصناعة البريطانية . وسمح لها كذلك باستخدام هذه الموارد فى اعادة سيطرتها التامة على سودان وادى النيل بعملية

اعادة الغزو ، والاستيلاء على دنقلة ثم الخرطوم ، وابعاد النفوذ الفرنسى المنافس لها من اعالى النيل ، من فاشودة . وإذا كانت بريطانيا قد رفعت العلم المصرى إلى جانب العلم البريطانى على السودان ، فان هذا لم يكن إلا للتخلص من مشكلة قانونية دولية هى ، مشكلة السيادة وارتباط السودان بمصر ، وبالتالى بالدولة العثمانية ، دولة الخلافة الاسلامية ، من الناحية القانونية . ذلك أن بريطانيا قد حكمت السودان ، وباسم الحكم الثنائى من لندن ، وعبر القاهرة ، ولكن عن طريق قصر الدوباره ، قصر المعتمد السامى البريطانى ، الذى كان يتحكم فى مصر ، ويدعى أنه انشأ « مصر الحديثة » .

وإنى لارجو ، بهذا الكتاب ، الجامع الشامل ، والذى قضيت سنوات من عمرى فى جمع مادته والتوسع فى أصوله ، وفى دور المحفوظات فى كل من لندن وباريس وروما والقاهرة ، وعدد كبير من وثائقه لم ينشر حتى الآن ، أرجو أن أكون قد وفقت إلى إخراج كتاب يسد نقصا فى المكتبة العربية ، ويساهم باعادة الحق إلى نصابه ، وأن يعين الباحث والدارس والقارىء على فهم هذا الدور الذى قام به اجدادنا فى انشاء هذه الدولة الافريقية الموحدة ، ورفع مشاعل الحضارة والمدنية فى قلب القارة الافريقية ، رغم اطماع وتكالب الدول الاستعمارية . وماتوفيقى الا بالله ،،

الاسكندرية فى ٣ فبراير ١٩٨٤

د . جلال يحيى

تمهيد

نشأت مصر فى افريقية وعاشت فيها وارتبطت بها ، وهى حقيقة علمية ومادية ولا يمكن لأحد أن يجادل فيها .

ارتبطت مصر بافريقية بروابط مختلفة ، تتمثل فى الموقع الجغرافى وفى الجنس والدين واللغة والوحدة الثقافية والحضارية . ولا شك أن أى افريقى يقرب منها عن أى أوربى أو أمريكى ، ونشعر حياله بروابط وبتفاهم لا يسهل الشعور به مع غيره من أبناء القارات الأخرى .

فمصر افريقية بموقعها الجغرافى ، مادامت تقع فى ذلك الركن الشمالى الشرقى من هذه القارة العذراء . ورغم أن مصر مركز التقاء افريقية مع آسيا واوروبا إلا أنها افريقية . ولا يمكننا ، حتى الآن ، أن نقف بمعزل عن الصراع الدامى المخيف الذى يجرى اليوم فى أعماق افريقية بين خمسة ملايين من البيض ومائتى مليون من الافريقيين ، كما يقول السيد رئيس الجمهورية ، لا نستطيع لسبب هام وبديهى ، هو أننا فى افريقية ، ولسوف تظل شعوب القارة تتطلع الينا ، نحن الذين نحرس الباب الشمالى للقارة ، والذين نعتبر صلتها بالعالم الخارجى كله ، ولن نستطيع بحال من الأحوال أن نتخلى عن مسئوليتنا فى المعاونة بكل ما نستطيع على نشر النور والحضارة حتى أعماق الغابة العذراء .. لن نتخلى عن مهمتنا الآن ، ولكن أجدادنا قاموا بها من قبلنا ، وفى ظروف كانت أصعب من ظروفنا ، وبوسائل أقل تطورا من وسائلنا وإمكانياتنا ، وقاموا بذلك لأنهم افارقة وللافارقة ، ولأن بلادهم كانت افريقية .

ومصر افريقية ما دام النيل ينبع من وسط القارة ويحمل الينا عوامل الثروة والخصوبة والرخاء . ويشتمل حوض النيل الآن على وحدات سياسية مختلفة وحكومات متباينة ، قد تتعاون وقد تتنافس وقد تتشاجر ، كما يتخاصم أبناء الاسرة الواحدة . فهناك السودان والصومال والاريتريا والحبشة واوغندة وكينيا ، ولكنها كلها ترتبط بالنيل ، وتعيش منه أو عليه ، وقد تتوقف حياتها

على ما يحمله هو من مياه . ولقد كان أمر السيطرة على مياه النيل ، وضمان وصوله لمصر من أهم مشاغل حكام وادى النيل . ومنذ فجر التاريخ وكم من مرة ادعى فيها هذا الملك ، أو ذلك الرئيس ، انه سيعمل على تغيير مجرى النيل ، وأقام بذلك أحداث التاريخ وأقعدها . وسواء أكان مثل هذا الاتجاه قد ظهر فى عصور الفراعنة ، أو مع بداية هجوم القوات الاستعمارية البرتغالية على افريقية فى اثناء القرن السادس عشر ، فان النتائج كانت متشابهة . وكانت أعمال الرى والصرف فى البلاد التى تعيش من مياه النيل من بين أهم ما يذكر بالخير وفى التاريخ لحاكم أو ملك أو صاحب سلطان . لقد تغنى المصريون بالنيل وعبدوه ، وعبدوا بذلك إبناً من أبناء افريقية . وفكروا دائما فى أصله ومنبعه ، وحاولوا الوصول إليه وإستكشافه ، سواء أكان ينبع من السماء أو من جبال القمر ، وكانوا فى حقيقة الأمر يحاولون الوصول إلى قلب افريقية وإلى مصدر حياتهم الحقيقى .

ومصر افريقية إذ أن ابناءها أفارقة من أبناء افريقية ، ويرتبطون ببقية سكان هذه القارة إرتباطا جنسيا . ولقد أثبت البحث العلمى أن سكان حوض النيل من أصل واحد ، ومن جنس واحد ، هو العنصر الحامى ، رغم وجود إختلافات بسيطة فى لون البشرة أو العينين واختلاف صفات الشعر ، التى ترتب جزء كبير منها على الاختلاط بشعوب أخرى فى هذا الاقليم أو ذاك . حقيقة أن الحاميين ينقسمون الى حاميين شماليين فى طرابلس وجنوب الجزائر وحتى المغرب ، وحاميين شرقيين يمتدون من مصر إلى اقليم الاريتريا الحالى والحبشة ، ولكنهم كلهم من الحاميين ، وهو رباط لا يمكن تجاهله بسهولة .

ومصر افريقية بدينها . ويعتبر الدين . مهما حاول الماديون من تقليل أهميته . ظاهرة من الظواهر الاجتماعية التى تساعد على الروابط ، بل التى ينشأ عليها المجتمع . وحينما انتشرت المسيحية ودخلت مصر ، قامت مصر بنشرها فى افريقية . وسارت المسيحية من مصر جنوبا إلى النوبة وإلى الحبشة ، وبقيت فى الأولى حتى القرن الرابع عشر ، وبقيت فى الثانية حتى الآن . ولقد ظلت

obeikandi.com

الكنائس المسيحية الافريقية مرتبطة بالكنيسة المرقسية المصرية ، وحتى الآن ، وهى رابطة لا يمكن لأحد أن يتجاهلها ، أو يقلل من أهميتها . حقيقة أن بعض التنافس قد نشأ بين كنائس هذه الأقاليم المختلفة ، وخاصة بعد انتشار الاسلام ، ومحاولة بعض الدول الاجنبية الاستعمارية ، وكانت كاثوليكية ، مثل البرتغال ، الوصول إلى الايقاع بين بعض هذه الكنائس الافريقية ، وخاصة الكنيسة الحبشية مع الكنيسة المصرية ، ولكنها كانت تهدف من وراء ذلك تحويل الاثيوبيين الارثوذكسيين إلى المذهب الكاثوليكى ، وهى مرحلة خاصة ، لها عواملها ونتائجها المحددة ، ولم تؤثر على تاريخ المنطقة .

وحين انتشر الاسلام من الجزيرة العربية شمالا وشرقا وغربا ، ووصل إلى مصر ، أصبحت مصر تلك القاعدة الامامية لنشر الاسلام وإعلان الحق فى كل افريقية . وسارت منها الحملات غربا الى شمال افريقية ، وسار منها المجاهدون جنوبا مع النيل الى السودان وسواحل البحر الاحمر . وهكذا ارتبطت افريقية وخاصة أقاليمها الشمالية والشرقية بمصر وبالاسلام . وساعد هذا الرباط الروحى على إدماج الاهالى والمجتمعات ، وعلى التزاوج وتبادل المنافع ، وبشكل يمهد للاتحاد ، إن لم يكن للوحدة .

انتشر الاسلام من مصر فى افريقية مع هجرات قبائل بأكملها ، سارت من الحجاز ونجد عبر أرض الكنانة ومنها إلى افريقية ، كما انتشر الاسلام عن طريق انتقال عدد من التجار العرب والمسلمين ، عبر البحر الاحمر وبوغاز باب المندب ، وعملهم ومتاجرتهم مع أبناء القارة الافريقية ، وأدى ذلك الى دخول الاسلام بلاد الصومال وشرق افريقية ، وإذا كان انتشار الاسلام مع طريق الهجرة يتصل باعطاء صبغة معينة الى أبناء الاقليم الذى تصله هذه القبائل ، فان وصول التجار المسلمين لم يأخذ شكل حركة جهاد مسلحة لفرض الاسلام على الشعوب الافريقية المجاورة . فلقد جاء التجار المسلمون باخلاق جديدة ، وبرؤوس أموال تساعد على ازدهار التجارة ، وشعر الافارقة بسمو اخلاق العرب وحسن معاملتهم ، وشعروا أن السبب فى ذلك هو دينهم ،

لا سلاحهم ، فتقربو منهم ورادو من علاقاتهم بهم ، ثم تزاوجوا فيما بينهم . ونتج عن ذلك شعوب جديدة امتازت بعشقها للحرية والاستقلال ، واعتزازها باسلامها مع اعتزازها بافريقيتها وورثوا صفاتهم المجيدة عن آبائهم واجدادهم ، من العرب ومن الافريقيين ، وخرجوا شعوبا حرة تكافح من أجل افريقيتها ومن أجل الاسلام ولا زالت تكافح

ومصر افريقية بعروبتها التى تستند أساسا ، إلى لغة الضاد ، ولا يمكننا التحدث عنها وتناسى أصلها وأساسها وهو القرآن والاسلام . إنا أنزلناه قرآنا عربيا ، ومضت أربعة عشر قرنا ونحن عرب ، والفضل فى ذلك لله وللقرآن . ولقد سارت العروبة فى افريقية على طريق الاسلام ، ومعه ، وداخل قلوب المسلمين وعلى السنتهم . وتعربت مصر ، فتعربت أقاليم كثيرة من أفريقية ، واصبحت مصر مركز العروبة وقلبها النابض ، وأصبحت هذه الاقاليم تمثل اعضاء جسد الأمة العربية الواحدة المتماسكة .

ومصر افريقية بثقافتها وحضارتها ، كما أنها افريقية بمصالحها وبوحدة مصيرها ، ويصعب بعد ذلك علينا أن نتناول تاريخ مصر إذا ما حاولنا فصله عن تاريخ القارة الافريقية ، مادامت مصر قد تأثرت بهذه القارة ، وأثرت فيها .

* * *

لقد كانت وسائل الارتباط بين مصر وافريقية تتمثل فى ثلاث طرق : الأول هو النيل ، والثانى هو طرق القوافل عبر الصحراء الغربية من أسيوط مع طريق الاربعين ، وبطول هذا الدرب عبر الواحات الخارجة إلى كردفان ، والثالث هو طريق البحر الاحمر الذى سهل وصول مصر إلى شرق السودان والحبشة وبلاد الصومال .

أما الطريق الأول فكانت تعترضه الجنادل التى تعوق الملاحة فى النيل ، وتصعب عملية التوغل جنوبا فى قلب القارة الأفريقية . ورغم ذلك فان السهل الضيق المجاور للنيل قد سمح للمصريين بالسفر جنوبا ، وبالاتصال بابناء السودان ، وتبادل المنافع معهم والاتحاد بهم . وكانت الرغبة الجامحة فى معرفة أصول النيل ومنابعه تجذب المصريين جنوبا ، وتدفعهم دفعا للتوغل فى وسط القارة . ومنذ أيام الفراعنة سجل التاريخ صفحات مجيدة لأيام وحدة واتحاد بين أقاليم مصر الافريقية ازدانت بها جدران المعابد ، ووصلت بها مظاهر المدنية إلى المجاهل والغابات ، ومنذ قرون . ولقد أثرت عمليات الغزو الليبى والفارسى واليونانى والرومانى بطريقة مباشرة أو غير مباشرة على الصلات بين مصر وافريقية ، مع وادى النيل . وكم من مرة خرجت فيها هجرات مصرية جنوبا ، نتيجة لضغط هجرات أجنبية على مصر نفسها ، وادت بذلك الى تدعيم الروابط بين أجزاء الاقليم الواحد .

وكما كان طريق النيل رباط صلة كان طريق درب الاربعين طريقا ثانيا للوصل بين مصر وافريقية ، وأن كان طريقا أكثر صعوبة نتيجة لقلة المياه ولاشتداد درجات الحرارة فيه أكثر من طريق الوادى .

أما الطريق الثالث فهو طريق البحر الأحمر الذى وحد بين أبناء الأقاليم الذين يسكنون على ضفافه وساعد على الاتصال بينهم . ورغم أن هذا البحر كان صعبا فى جوه ، وصعبا فى ظروف الملاحة فيه ، إلا أن العزيمة القوية لم تكن تنقص الافارقة الذين صمموا على التغلب على هذه الصعوبات وتذليلها . فلم تقف حرارة الجو وارتفاع درجة الرطوبة فيه وفقر السواحل الرملية فى طريق عزيمة المصريين للاتصال بشرق السودان وببلاد الصومال . فكافحوا وجاهدوا للوصول الى هذه البلاد ، والاتصال بأهلها وتبادل المنافع معهم . ومنذ فجر التاريخ احتاج ابناء هذه الاقاليم كل منهم للاخرين ، فتعاونوا سويا فى الميادين التجارية والاقتصادية ، وعاشوا كجيران لاينشد كل منهم الا الود والاخاء لاخوانه .

احتاج المصريون منذ عهد الفراعنة للبحور والأخشاب وجلود الحيوانات الموجودة فى الصومال ، وعرفوا أن أسهل طريق للوصول الى هذه البلاد الافريقية هو الملاحة فى البحر الأحمر . فصمموا على الوصول اليها رغم المصاعب .

وتدل آثار الاسرات الأولى وعصور ماقبل التاريخ فى مصر على تفوق الفراعنة فى فنون الملاحة ، ويذكر ماسبيرو « أن المصريين هم أول من بنى السفن البحرية ، وأول من سافر على البحار ، ولاقى الاخطار فى البحرين الأبيض والأحمر ، بل ويظهر أنهم علموا غيرهم من الشعوب فنى الملاحة وبناء السفن » .

واختار المصريون القدماء أقرب طريق يصل وادى النيل وسواحل البحر الأحمر . وكان هذا هو طريق وادى الحمامات الذى يخترق الصحراء الشرقية بين قفط على النيل والقصير على البحر الأحمر . فسار المصريون فى هذا الطريق ، وتركوا آثارا تدل على مرورهم فيه ، وتدل على اتصالهم بشعوب أخرى . وأخترقت القوافل وادى الحمامات . ثم سارت السفن فى البحر الأحمر ، وتبادلت التجارة مع بلاد شرق افريقية ، ووثقت عرى الصلات بين البلاد الشقيقة .

ورغم وعورة الطريق البرى الموصل بين وادى النيل والبحر الاحمر ، إذ لم تكن فيه حياة ولا مياه ، فان قدماء المصريين قد حملوا معهم مؤنة الطريق ثم مؤنة الاقامة على الشاطىء ، مضافا اليهما مؤنة الرحلة ذهابا وايابا فى البحر ، علاوة على الأخشاب اللازمة لبناء السفن نفسها . حمل قدماء المصريين ذلك على ظهور الحمير ، وتمكنوا على سواحل البحر الاحمر من بناء سفن تسمح لهم بالوصول الى بلاد شرق افريقية . وتحدثنا اخبار الاسر الاولى عن ازدياد عدد هذه الرحلات ، وخصوصا فى عهد الاسرة الخامسة ، الذى امتاز عهدهابازدهار هذه الحركة التجارية .

ولقد سجل لنا التاريخ حملة ساحورع إلى البلاد المقدسة لجلب البخور وخشب المر والابنوس . وحافظ الفراعنة بعد ذلك على هذه العلاقة ، وافتتحوا محاجر فى وادى الحمامات الذى أخذت تدب فيه الحياة نتيجة لمرور هذه البعثات التجارية .

ثم استخدم المصريون طريق وادى الطميلات حتى موقع السويس الحالى ، منذ عهد الأسرة السادسة ، للوصول إلى سواحل البحر الاحمر ، وبالتالى الى بلاد الصومال وشرق افريقية . وازدادت هذه الصلات بمرور الزمن ، حتى جاء عهد حتشبسوت التى حدثتنا على جدران معبدها فى الدير البحرى بانباء حملتها الى شرق افريقية .

ولقد ثبت تاريخيا وجود قناة بحرية فى هذا العصر ، تسير فى وادى الطميلات حتى سواحل البحر الاحمر ، ويظهر من رسم مناظر هذه الرحلة أن السفن كانت راسية على شاطىء النيل ، لا على شاطىء البحر . ثم سارت بعد ذلك فى هذه القناة الى البحر الاحمر وبلاد شرق افريقية . والظاهر أن هذه القناة قد طمرتها الرمال بعد ذلك ، مما اضطر رمسيس الثالث الى نقل لوازم رحلته على ظهور الحمير مرة جديدة بين قفط والقصير . ولكن المصريين أعادوا حفر هذه القناة فى عهد الملك ميخاو ، من ملوك الاسرة السادسة والعشرين ، وتمت عملية الحفر فى عهد دارا الفارسى .

ولقد أصبحت هذه الرحلات الى مناطق شرق افريقية جزءا من حياة المصريين ، وسجلوها فى آدابهم ، وتناقلوها من جيل الى جيل . وتسجل لنا قصة البحار انباء المصاعب التى لاقاها البحارة المصريون الشجعان فى احدى رحلاتهم فى البحر الاحمر الى شرق افريقية ، وتغلبهم على هذه المصاعب ، ورجوعهم الى مصر محملين بالهدايا والخيرات .

إهتم الفراعنة اذن بالتجارة مع هذه البلاد المقدسة التى سموها بلاد بونت

وحافظت مصر على هذه الصلات فى عصور البطالسة والرومان وأخذت تجارة الشرق الاقصى تمر على موانى الصومال فى مواسم معينة كل سنة ، حسب الرياح الموسمية فى المحيط الهندى ، ثم يعاد نقلها بعد ذلك الى مصر ، وتوريعها على بقية العالم اليونانى والرومانى فى اوروبا . وهكذا لعبت كل من مصر والصومال وشرق افريقية دورا هاما وخطيرا فى التجارة العالمية ، بين الشرق والغرب ، منذ أقدم العصور . حقيقة أن طريقا تجاريا آخر قد بدأ فى الظهور ، وخصوصا فى العصر الرومانى وكان هذا الطريق برياً ، وينافس الطريق البحرى بين الصومال ومصر . فجاءت متاجر الشرق الاقصى إلى مكان عدن الحالى ، ثم سارت القوافل منها مخترقة اليمن والعسير والحجاز شمالا إلى سواحل البحر المتوسط عند فلسطين ولبنان . ولكن هذا الطريق لم يقض على الطريق الآخر الموصل بين الموانى الصومالية والموانى المصرية . بل لقد دفع المصريين إلى الاستيلاء على الاقاليم السورية لضمان مرور الطريقين الهامين فى دولتهم . وحافظ البطالمة على هذه التجارة بين الشرق والغرب ، والتى لعبت شرق افريقية والصومال فيها دورا كبيرا . واشتملت صادراتهم إلى اوربا على منتجات الصين والهند ووسط افريقية ، كما اشتملت صادراتهم إلى بلاد الجنوب على المنسوجات والمصنوعات المعدنية ، فاعادوا حفر القناة التى تصل النيل بالبحر الاحمر ، واهتموا بالطريق البرى الذى يصل النيل بهذا البحر ، وانشأوا الموانى على سواحل البحر الاحمر ، وبدأوا فى احضار الحيوانات الافريقية ، من بلاد الصومال وشرق افريقية ، واستخدموا الفيلة فى معاركهم الحربية .

أما الرومان فانهم قد حاولوا – بعد إحتلالهم لمصر – أن يسيطروا على هذه التجارة العالمية ، وفضلوا سيطرتهم على الطريق البحرى بين موانى الصومال ومصر على الطريق البرى الذى يمر فى شرق البلاد العربية . بل أنهم لم يتورعوا فى عهد فيسباشيان ، عن ارسال حملة لتدمير عدن ، عملا على تقوية طريق التجارة الآخر الذى يرتكز على الموانى الصومالية وعلى مصر . وفرض الرومان ضرائب باهظة على سفن الشرق الأقصى التى تصل الى جنوب الجزيرة العربية ، توجيها للتجارة إلى الطريق الآخر ، ومنعا لتجار آسيا من الحصول

على مكاسب يمكن الاحتفاظ بها لابناء الشرق الاوسط .

ثم جاء البيزنطيون بعد الرومان ، وعملوا على تشجيع كل الطرق التجارية العالمية بين الشرق والغرب ، وخصوصا الطرق التى تؤدى رأسا إلى عاصمتهم فى القسطنطينية . فبدأ طريق ثالث فى الازدهار ، وهو طريق الخليج العربى ، الذى يمر بعد ذلك عبر ما بين النهرين إلى آسيا الصغرى ومنها إلى أوربا . وكان هذا بطبيعة الحال على حساب الطريق المار فى شرق البلاد العربية ، وخصوصا على حساب الطريق الموصل بين موانى شرق افريقية والصومال وبين الموانى المصرية . ولكن كل ذلك لم يؤد الى وقف المعاملات التجارية بين مصر وشرق افريقية ، وان كانت التجارة بينهما قد اقتصرت تقريبا على تبادل المنتجات والمواد الخام الاقليمية .

وحينما بدأ العرب يخرجون من جزيرتهم مع ثورتهم الكبرى ، حاملين مبادىء الاسلام ، توحدت كل من مصر والصومال وسواحل شرق افريقية داخل نطاق هذه الدولة الجديدة ، التى أعطت صفتها الاسلامية اولا ثم صفتها العربية ثانيا – لكل الاقاليم التى اتحدت معها ، ثم انصهرت فى بوتقتها . وأصبحت مصالح مصر ومصالح شرق افريقية ومصالح الصومال هى نفس مصالح الدولة العربية . دخل الاسلام مصر ،وأثر أكبر أثر فى تاريخها وفى شعبها . ودخل الاسلام كذلك بنادر شرق افريقية وبلاد الصومال عن طريق اليمن وبوغاز باب المندب ، ورحب الافارقة بالاسلام كما رحب به اخوانهم فى مصر . وتتالت الموجات الاسلامية ، واصبح الاسلام صفة لمعظم المصريين ، ودينا لأبناء شرق افريقية .

ولقد صحب هذه الموجات العربية والاسلامية المتعددة إلى بلاد شرق افريقية وسواحلها وصول حضارة جديدة ، وثقافة زاهرة ، قربت بين ابناء شرق افريقية وبين المصريين ، ونشأت مدن جديدة ، على طول الساحل الافريقى نتيجة لوصول هذه الموجات ، وأخذت الاسر العربية تتصاهر مع أبناء

افريقية ، وتسهم بنصيب وافر فى نشأة مراكز هامة للثقافة العربية والاسلامية فى هذه البلاد .

هذا هو الطريق الثالث للاتصال بين مصر وإفريقية ، طريق البحر الأحمر ، الذى سجل له التاريخ اكثر مما سجل لطريقى النيل ، ودرب الأربعين عبر الصحراء .

ولقد أصبح الصومال قلعة حصينة من قلاع الاسلام فى شرق إفريقية ، وتوغل منه النفوذ الاسلامى إلى قلب بلاد الحبشة وإلى داخل القارة الافريقية وأسهم فى هذا الطريق التجار العرب ، واستمالوا الأفارقة اليهم ، وتصاهروا معهم ، وأنشأوا شعوبا إفريقية عربية تمتاز — كما ذكرنا — بعشقها للحرية والاستقلال ، واعتزازها بافريقيتها مثل إعتزازها باسلامها . وأورثوا صفتهم المجيدة أبا عن جد إلى هؤلاء الأشبال الأفارقة المسلمين الذين خرجوا أحرارا يكافحون من أجل إفريقيتهم ، ومن أجل اسلامهم .

وكما رأى العالم العربى والاسلامى أيام عز ومجد ، وأيام تفكك وتشتت ، رأى أبناء شرق إفريقية نفس هذه الأيام ، وشعروا بما شعرت به بقية الشعوب الاسلامية الكبرى فى العصور الوسطى ، ولكنهم احتفظوا بتضامنهم مع بقية الشعوب المجاورة لهم وتداولت الدول أمر الشرق الأدنى ، وتعرضت هذه المنطقة لأخطار جسيمة . هاجمها التتار ، وهاجمها الصليبيون ، وإتخذ هؤلاء الاخيرون من دينهم ستارا يخفون به أطماعهم التجارية والاقتصادية ، ومصالحهم الشخصية والاستراتيجية فى بلاد الشرق الأدنى العربى . ثم بدأت الدول الأوربية فى يقظتها ، وعملت على انتزاع تجارة الشرق العالمية من أيدى المسلمين ، وبدأت سفنها تبحث عن طريق آخر يوصلها إلى الهند ، فسارت نحو الغرب حيث اكتشفت أمريكا ، وسارت صوب الجنوب ملتفة حول رأس الرجاء الصالح ، ومنه إلى المحيط الهندى ، وإلى كنوز الهند والصين . وشاركت كل من إسبانيا والبرتغال فى هذه الحركة ، واضطرت مصر المملوكية الى

الكفاح من أجل احتفاظها بالتجارة العالمية فى أيديها . فحاولت منع الأجانب من النزول فى جنوب الجزيرة العربية ، ومن تثبيت أقدامهم على سواحل الصومال ، وفى جزر المحيط الهندى . واتصلت بامراء الهند ، وحاولت التحالف مع البندقية التى ارتبطت مصالحها فى ذلك الوقت بمصالح مصر . ولكن هذا التحالف المملوكى مع البندقية لم يعط نتيجة لها قيمتها .

لقد تمكن المصريون من هزيمة الأساطيل البرتغالية سنة ١٥٠٨ بجوار جزيرة ديو ، ولكنهم لم يقضوا على قوة البرتغاليين بشكل نهائى . فأعاد البرتغاليون مهاجمة المصريين ، وانتصروا عليهم فى العام التالى . وحاول المماليك التحالف مع الدولة العثمانية الناشئة فى ذلك الوقت ، ولكن قوات غرب أوربا كونت جبهة متحدة ضد المسلمين فى الشرق الأدنى ، وتمكنت من تحطيم الاسطول المصرى التركى قرب الاسكندرية . فأرسل المصريون قوات جديدة ، ووحدات بحرية أخرى ، إلى جنوب الجزيرة العربية وسواحل الصومال وشرق إفريقية ، لمنع المستعمرين الأجانب من إقامة قواعد إستراتيجية فى هذه المناطق . ولكن الأحوال تغيرت فى الشرق الأدنى قبل أن يصل المصريون إلى نتيجة حاسمة فى الميدان . لقد قتل السلطان الغورى فى موقعة مرج دابق سنة ١٥١٦ وإستولى العثمانيون على مصر سنة ١٥١٧ . ومنذ هذا التاريخ وقع على كاهل العثمانيين وحدهم أمر الاحتفاظ بدول الشرق الأدنى ، آسيوية وإفريقية ، أمام المعتدين الأجانب ، وأمر الدفاع عن مصالح مصر ومصالح السودان ، ومصالح شرق إفريقية ، ومصالح الصومال ، وبقية الأقاليم الاسلامية .

* * *

واصل البرتغاليون اعتداءهم على الأقاليم الشرقية والاسلامية . وكانت سياستهم تتلخص فى اقامة قواعد عسكرية على طول السواحل الافريقية فى المحيط الأطلسى جنوبا ، ثم المحيط الهندى شمالا ، بعد الالتفاف حول رأس الرجاء الصالح . هدفوا الى اتخاذ هذه القواعد نقط ارتكاز بحرية تسمح لسفنهم

بالتمون بالماء والزاد ، كما تسمح لهم بالسيطرة على طريق المواصلات العالمى الجديد . واتخذوا هذه القواعد فى نفس الوقت مراكز تجارية يعملون فيها على شراء المواد الأولية الافريقية ، ويبيعون فيها بعض الخرز والحلى الرخيصة ، وكانت هذه القواعد – قبل كل شيء – مراكز هامة لتجارة الرقيق الذى اصطادوه من المناطق القريبة . ثم بدأوا فى إعداد الحملات العسكرية والتوغل بها صوب داخل القارة من كل إتجاه ، لاصطياد الافريقيين . ومع مرور الزمن جنى البرتغاليون ثروات طائلة من هذه التجارة البشرية ، وكانوا يبيعون الرقيق للعمل – دون احتجاج – تحت حرارة الشمس المحرقة فى العالم الجديد .

ولقد وجد البرتغاليون أن العرب والمسلمين هم أقوى العناصر المسلحة التى تستطيع وقف استغلالهم للقارة الافريقية ومواردها . ولاينكر أحد على البرتغاليين ، حتى لليوم ، تعصبهم الاعمى للدين المسيحى . فمزج البرتغاليون بين الدين والمصالح ، وادعوا أنهم يقومون بحركة للانتقام للصليب من الهلال . ولم تكن المسيحية إلا غلالة رقيقة يخفون وراءها اطماعهم ومصالحهم الاستعمارية ، وهى بريئة منهم ومن حركتهم الاستغلالية . وعلى أى حال فقد فكر البرتغاليون فى ذلك الوقت ، بل عملوا ، على تطويق العالم الاسلامى فى النصف الشمالى من القارة الافريقية ، وذلك باقامة تحالف مع مسيحيى الحبشة ، بدعوى أن الاسلام يهدد كلا منهما . وانطلت هذه الخدعة على الاحباش ، رغما عن أن أحدا لم يشهد عليهم بالسذاجة ، واعتقدوا أن مسلمى شرق افريقية والصومال يهددون الحبشة ، ويعملون على السيطرة عليها . فقام هذا الحلف البرتغالى الحبشى إذن موجها ضد المسلمين فى وادى النيل ، وشرق السودان وبلاد الصومال وشرق افريقية . وأرضى هذا التحالف شعور الاحباش ، وفتح أمامهم أمل السيطرة على الشعوب الاسلامية المجاورة ، وأمل إنشاء إمبراطورية مسيحية واسعة الارجاء .

ولكن شخصية قوية ظهرت فى شرق افريقية فى ذلك الوقت ، وشعرت بخطورة هذه الاتجاهات الاستعمارية ، التى تختفى وراء ستار الدين لتحقيق

الاطماع الخاصة ، وعلى حساب ابناء الاقليم الواحد ، الذين عاشوا فى اخاء وتعاون مدة قرون طويلة ، دون نظر إلى الدين أو الاستناد إلى تفرقة عنصرية . وكانت هذه الشخصية هى البطل الافريقى أحمد جرين ، أو الاشول ، الذى تمكن من توحيد كلمة الصوماليين والاستعداد لمواجهة الاخطار الأجنبية والعنصرية . وبدأ جهاده المجيد الطويل بوضع حد لهذه السياسة الفاسدة ، التى هددت بتمكين الغرب من الشرق ، ومساعدة البرتغاليين على احتكار طرق التجارة العالمية ، وحرمان شعوب الشرق الادنى وشرق افريقية من موارد رزقها .

ويسجل لنا التاريخ هذه الصفحة المجيدة من صفحات الجهاد الافريقى الاسلامى للدفاع عن مصالح أبناء البلاد . كانت الحبشة منقسمة إلى مقاطعات ، ويمتاز بعض أقاليمها بوجود أغلبية اسلامية فيه ، ويمتاز الآخر بخضوعه لحكام من المسلمين . فعمل أحمد جرين على تكتيل الشعور الاسلامى اللازم للنزول إلى معركة أعلنت باسم الصليب . ثم وحد قوات المجاهدين فى الصومال ، بل وفى الحبشة نفسها . ورأت الدولة العثمانية ، التى سيطرت على الشرق الادنى فى ذلك الوقت ، أهمية هذه الحركة التى هددت المستعمرين البرتغاليين ، وتمكنت من وقف نشاط أعوانهم الافريقيين . وتحالف العثمانيون مع أحمد جرين ، خاصة وأن البرتغاليين كانوا قد هاجموا السويس سنة ١٥٤٠ وحاولوا مهاجمة جدة وينبع ، مدعين العمل على نسف الاسلام . ولكن موارد العثمانيين وإمكانياتهم كانت محدودة ، وخاصة نتيجة لحروبهم المتعددة فى الشرق الأدنى وفى شرق أوروبا ، ولم تكن معونتهم لأحمد جرين بمعونة كافية .

لقد انتصرت قوات الصومال فى كل مكان ، والمهم هو أن معركتها فى ذلك الوقت كانت هى معركة طرق التجارة العالمية بين الشرق والغرب ، وكان الجانب الذى حاربت فيه هو جانب الدولة العثمانية ، جانب مصر وجانب سورية ، وجانب الطريق البرى المار بمنطقة الشرق الأدنى .

أسرع الاحباش بطلب المدد من البرتغاليين الذين أرسلوا وحدات كاملة من المدفعية والبحرية لمساعدتهم أمام المسلمين . ورغم استبسال أبناء الصومال فقد أثرت فيهم قلة مواردهم ، وعدم ورود المعونة من الخارج ، وتفوق الأسلحة الغربية . وإنتهت هذه الحرب برجوع الصوماليين إلى بلادهم ، وبمحافظة الحبشة على استقلالها أمام المسلمين . ولكن سرعان ما ظهر أن البرتغاليين كانوا لا يقبلون ترك الحبشة لابنائها ، إذ حاولوا الاستيلاء على السلطة بطريق غير مباشر ، بل حاولوا تغيير الاحباش الارثوذكس الى المذهب الكاثوليكى وربطهم بكنيسة روما . وفى هذا الوقت اضطر الاحباش إلى الكفاح ضد حلفاء الأمس ، بعد أن ساعدوهم فى اضعاف اخوانهم الصوماليين فى الشرق الأدنى . وهب الاحباش لطرد البرتغاليين من بلادهم ، ورضى البرتغاليون بالخروج من الحبشة ، ولكنهم احتفظوا بطريق التجارة العالمية حول رأس الرجاء الصالح ، ومع الشرق الاقصى ، فى ايديهم . كما احتفظوا بقواعدهم البحرية حول إفريقية ، يستغلون منها موارد هذه القارة ، ويستندون اليها فى السيطرة على العالم ، الى أن جاءت دول أوربية أخرى ، وانتزعت من البرتغاليين السيادة على هذا الطريق .

* * *

كان من بين أهم النتائج التى ترتبت على تغيير طرق التجارة العالمية من الشرق الأدنى الى طريق رأس الرجاء أن قلت الأموال فى ايدى سكان الشرق الادنى ، وقلت الحركة التجارية كذلك فى موانى وبنادر شرق إفريقية . ذلك أن البرتغاليين قد اعتمدوا فى ملاحتهم على موانى شرق افريقية حتى زنزبار شمالا ، ومنها رأسا إلى موانى الهند . فخرجت بذلك كل من الصومال ومصر من منطقة مرور التجارة العالمية ، وشاركا بذلك فى نفس المصير ، من الفقر والتأخر والتخلف الذى ساد بقية بلاد ومناطق أرض الحضارة الطيبة ، وذلك فى الوقت الذى ازدادت فيه الثروات فى أيدى الأوربيين ، فارتفع مستوى معيشتهم ، وساعد بالتالى على تقدمهم الحضارى والثقافى .

* * *

ولقد شارك جزء كبير من شرق إفريقية مصر فى خضوعها للدولة العثمانية ، وكان هذا هو الجزء أو الشريط الساحلى الممتد من رأس حافون شمالا ثم غربا ، مع الساحل الجنوبى أو الافريقى لخليج عدن ، ومنها شمالا حتى مضيق باب المندب ، ومع البحر الأحمر شمالا حتى السويس . ذلك أن الدولة العثمانية قد احتفظت بسيادتها على هذه الاقاليم ، توحيدا لها مع بقية الاقاليم الاسلامية ، واعتبرت أولها فى خليج عدن قواعد أمامية أمام توسع الدول الاستعمارية من المحيط الهندى شمالا فى البحر الاحمر . وأصبحت محافظات زيلع وبربرة ضمن محافظات الدولة العثمانية ، متوحدة بذلك مع مصر فى دولة واحدة ، ضمت كذلك محافظات مصوع وسواكن التى وحدت الدولة العثمانية كل سكانها داخل اطار واحد ، ووضعتهم أمام مصير واحد . أما من الناحية الادارية فنلاحظ أن المحافظات الصومالية قد خضعت فى معظم أوقاتها لسلطة والى اليمن العثمانى ، رغم أن سلطات الدولة العثمانية تركت للاهالى أمر التصرف فى كثير من الشئون الداخلية .

أما سواحل الصومال الممتدة فى المحيط الهندى فان السلطات العثمانية لم تصل إليها بل تركت أمر إدارتها للشيوخ والسلاطين المحليين . فعمل كل منهم فى مدينته المستقلة عن مدينة جاره على رواج التجارة ، وشجع على ازدهار حضارة اقليمية ، ولكنهم تساندوا جميعا مع بعضهم ، ومع الدولة العثمانية ، ومع امراء الجزيرة العربية والخليج العربى ، وفى ظل التضامن الاسلامى ، وفى الكفاح ضد المستعمرين الأجانب ، ضد البرتغاليين ، الذين اخضعوا سواحل شرق افريقية لنفوذهم .

أما موانى سواكن ومصوع فانها كانت تلحق فى بعض الأوقات بولاية جدة أو الحجاز ، وينتهى بها المطاف دائما ، إلى مصر . وكان البحر الأحمر ودور المصريين فى البحر الأحمر هو الذى يهيء لهم امكانيات الوحدة والاتحاد الطبيعية مع ابناء كل هذه الاقاليم .

* * *

لقد مرت كل هذه المنطقة ، فى شمال شرق إفريقية ، بمراحل متعددة من تاريخها ، ولكنها تضامنت كلها مع اخوانها من العرب والمسلمين ، فى كل من الشرق الأدنى ومناطق الخليج العربى ، ومع مصر بنوع خاص . لقد شاركوا جميعهم فى الكفاح ضد الاستعمار البرتغالى ، وايدوا سلطان مسقط فى انتزاعه السيطرة على المحيط الهندى من أيدى البرتغاليين . ومع بداية القرن التاسع عشر بدأت قوى جديدة فى النزول إلى الميدان ، وعملت على تطوير الحوادث . ولكن تاريخ هذه المناطق الافريقية ارتبط رغم ذلك بمصر وفى فترة مجيدة من تاريخها ، قل أن يكتب التاريخ أكثر منها روعة : أنها صفحات الاتحاد بل الوحدة المصرية الافريقية ، صفحات تاريخ مصر الافريقية ، تلك الصفحات التى كتبها اباؤنا واجدادنا بعرقهم ودمائهم فى الصحارى الافريقية ، والتى اشتملت على قوة عزيمتهم وشدة ايمانهم بافريقيتهم ، حتى وان كانت الدول الاستعمارية قد وقفت لهم بالمرصاد .